المحور: التعليم والعلماء.

المحاضرة– العلماء المسلمون في الجزائر:

من الصعب تحديد عدد العلماء المسلمين الذين وردوا على الجزائر خلال العهد العثماني وبيان وظائفهم وذكر بلدانهم ونوع ثقافتهم وأهدافهم، فالعالم الإسلامي كان وطنا واحدا ينتقل فيه العالم من طرفه إلى طرفه الآخر دون أن يسأله أحد أين هو ذاهب، وكان العلماء من حيث لا وطن لهم، فهم حيث مصالحهم العامة والخاصة، ومع ذلك فقد وجدت ظروف ساعدت على هجرة العلماء من بلد إلى آخر، منها العوامل السياسية والاقتصادية وطلب العلم[1].

كان العلماء يترددون على الجزائر ويعملون فيها حتى قبل مجيء العثمانيين، وبعدها رافق بعض العلماء الحملات العثمانية على سواحل بلاد المغرب، كما رافقوا الباشاوات الذين عينوا من اسطنبول لإدارة البلاد وتمثيل السلطان، وكان بعض هؤلاء العلماء موظفين رسميا كالقاضي الحنفي، وقد ظل بعض رجال العلم العثمانيين يأتون إلى الجزائر حتى بعد تقادم العهد، ففي النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري ورد على الجزائر القاضي الشهير المولى علي [2]، الذي وصفه عبد الكريم الفكون(الحفيد) بما يلي: ‹‹ كانت له معرفة ونجابة وقوة عارضة، مشاركا في كل العلوم وعنده كتب جمة، ونزل عليّ بقسنطينة، وهرع إليه واليها وعسكرها وعظموه تعظيما كبيرا ››[3]، وقد كان القاضي علي في رفقة، وجاء لأغراض سياسية، وكانت نهايته سيئة، إذ نفي من الجزائر ومات في تونس[4].

---

[1] سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.1، ص.432.

[2] نفسه، ص.433.

[3] الفكون، **منشور الهداية**، ص.225.

[4] نفسه، ص.225.

ومن الأتراك الذين وردوا على الجزائر في العهد العثماني الأخير الشيخ مصطفى خوجة، فقد حل بها سنة 1168هـ، وعين منذ وصوله إماما لجامع خضر باشا حيث ظل ثماني عشرة سنة، ثم تولى وظائف أخرى إدارية، وشارك شخصيا في الحرب ضد الأوروبيين، وبالإضافة إلى الإمامة والجهاد ألف بعض التآليف بالتركية عن الحواث التي جرت أمامه وعاشها ومن ذلك كتابه (التبر المسبوك في جهاد غزاة الجزائر والملوك) و(رسالة مضحكات وعجائب)[1].

وقد ارتبط محمد بن علي الخروبي الطرابلسي بالعثمانيين في الجزائر من أول عهدهم وخدمهم بإخلاص حتى كانوا يثقون فيه كل الثقة، ومن الجزائر ذهب إلى المغرب في مهمات سياسية وعلمية، فدخل فاس ودرس فيها وأجاز بعض علمائها، ثم توجه إلى مراكش وترك هناك كتب ضخمة، وكانت معرفته بالمغرب وبعلمائه هي التي أهلته، مع ثقة العثمانيين فيه، ليتولى السفارة باسمهم لدى سلاطين المغرب السعديين، فقد ذهب الخروبي هناك على الأقل مرتين، منها واحدة سنة 961هـ، لعقد الهدنة وتحديد الحدود، وكان الخروبي قد أخذ العلم بالجزائر أيضا، كما تولى فيها بعض الوظائف كالخطابة واشتهر بجمع الكتب، وله مؤلفات عديدة معظمها رسائل وشروح لا تخرج عن الأوراد والطرق الصوفية[2].

وإذا انتقلنا إلى العلماء التونسيين، وخاصة منهم من كان على المذهب الحنفي، فإن الجزائر لم تكن بالنسبة إليهم نقطة عبور فقط، وإنما تحولت موطنا لطلب العلم والوظائف، فبحكم التشابه النسبي في النظم السياسية بين الولايتين العثمانيتين ورد على الجزائر في العهد العثماني بعض العلماء والقضاة الحنفيين من تونس نذكر منهم على سبيل المثال الشيخ أحمد بن مصطفى برناز صاحب(الشهب المحرقة

---

[1] سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.1، ص.434.

[2] نفسه، ص.435.

ت.1726م)، فقد توجه إلى الجزائر وأخذ عن عدة مشائخ بها منهم الشيخ رمضان بن مصطفى العنابي والشيخ علي بن خليل والشيخ محمد بن سعيد قدورة[1].

ومن علماء تونس كذلك الذين زاروا الجزائر لطلب العلم وبثه يمكن أن نذكر على سبيل المثال لا الحصر محمد الشافعي الباجي وأحمد الأصرم القيرواني اللذين استقرا بالجزائر مع أبناء حسين بن علي، واحترفا ببث العلم وصناعة التوثيق، أما من القضاة، فيمكن أن نذكر تولي محمد زيتون التونسي القضاء الحنفي بالجزائر في عهد الباشا محمد بكداش[2].

أما المغرب الأقصى، فقد كان لعلمائه حركة واسعة في الجزائر في العهد العثماني لأسباب عديدة، منها أن المنازعات السياسية على الحكم في المغرب كانت تؤدي ببعض العلماء إلى نشدان الهدوء والاستقرار في الجزائر، كما حدث لعلي بن الواحد الأنصاري الذي فر إلى الجزائر هروبا من أوضاع سياسية كان غير راض عنها، ومن المعروف أن المؤرخ والوزير أبا القاسم الزياني قد اختار الإقامة في الجزائر وأن معظم إقامته كانت في تلمسان لأسباب سياسية أيضا، وقد ألف بعض أعماله في الجزائر وعثر فيها على مصادر نادرة حول تواريخ سكان المغرب العربي القدماء[3].

ومن العلماء المغاربة نذكر أيضا محمد الحاج رئيس الزاوية الدلائية، فقد جاء هو وأولاده إلى تلمسان حين قضى السلطان الرشيد بن الشريف على الزاوية وفرق جموعها وزعماءها[4]، أما الشيخ أبو عبد الله محمد بن زيان التواتي والملقب بسيبويه المغرب لدرايته بعلم النحو، فقد رحل إلى الجزائر، حيث انتقل إلى جبل زواوة، وكانت

---

[1] الأرقش وآخرون، **مرجع سابق**، ص.301.

[2] نفسه، ص ص.301-302.

[3] سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.1، ص ص.439-440.

[4] نفسه، ج.1، ص.440.

شهرته بمدينة قسنطينة وبها انتشر علمه وأقبل إليه الطلبة وانتفعوا به، قال فيه تلميذه عبد الكريم الفكون (الحفيد)، الذي درس على يديه النحو ما يلي: ‹‹ كان معتنيا بالنظر ليلا ونهارا في غير أوان التدريس، وأخبرني بعض من جاوره أنه يبيت منكبا على المطالعة، وكانت أحواله لا تراه إلا مطالعا أو ناسخا وقل ما تجده متفرغا من ذلك ››[1].

ومهما قيل في هذه الحركة العلمية الواردة من المغرب أو من المشرق، فإنها كانت في جملتها بركة على الجزائر، فكل عالم كان مدرسة متنقلة ومكتبة مفتوحة، وحركتهم كانت تشكل ما نسميه اليوم بوسائل الإعلام وتبادل الخبراء ونحو ذلك من وسائل الاتصال العلمي، وكما كان الجزائريون يهاجرون من أجل العلم ليأخذوه في الأماكن البعيدة كانوا أيضا يرحبون بالعلماء الوافدين ويهرعون للأخذ عنهم والاستماع منهم في شوق وشغف، وهذا التلاقح في الأفكار والاتصال المستمر هو الذي أدى إلى نوع من التحديات الفكرية بين الجامدين والمتحررين ظهرت أحيانا في شكل مناظرات وأخرى في شكل نقد لاذع لأحوال الفكر عموما[2].

---

[1] الفكون، **منشور الهداية**، ص ص.57-59.

[2] سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.1، ص.444.